الباب الثامن والعشرون

في علو الهمّة

إن معالي الأمور وعزّة المسالك، سبيل محفوفة بالمكاره،والعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم،وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم:فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسي شدائد، ويحتمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضي العزيمة.

قال الشاعر:

والحر لا يكتفي من نيل مكرمة ... حتى يروم التي من دونها العطب
يسعى به أمل من دونه أجل ... إن كفّه رهب يسعى به رغب
لذاك ما سال موسى ربه أرني ... أنظر إليك وفي تسآله عجب
يبغي المزيد وفيما نال مكرمة ... وهو الكليم لديه الوحي والكتب

وعظيم الهمّة، يستخف بالرتبة السفلى، ولا تهدأ نفسه إلا حين يضعها في أسمى منزلة، وأقصى غاية،وإذا كان هذه الخلق لا يقع إلا على معالي الأمور، فلا عظمة لهمم قوم، يبتغون النهاية في زينة هذه الحياة الدنيا الفانية، ويغرقون في التمتع بلذاتها المادية القاتلة المهلكة.

ويتكوّن عظم الهمّة من طريق الإقتداء، أو من طريق تلقين الحكمة وبيان فضل عظم الهمة ما يكسب صاحبها من سؤدد وكمال، أو من طريق درس التأريخ والنظر في سير أعاظم الرجال، والتاريخ مليء بتلك المواقف.

وإننا لو أخذنا نبحث عن مفاخر أولئك الذين سجل التاريخ أسماءهم لوجدنا معظم مفاخرهم قائمة على هذا الخلق العظيم الذي نسميه (عظم الهمة) أو (علو الهمة).

والقرآن الكريم يملأ النفوس بعظم الهمّة، وهذا العظم هو الذي حرص أولياء الله، أن يتخذوا ذلك الطريق، لنسف تلك العروش الظالمة، فنسفوها من وجه الأرض نسفاً، ثم رفعوا مكانها لواء العدل والحرية، ففجروا أنهار العلوم لتشمل جميع الناس تفجيراً.

وقال أحد العلماء: إن كبير الهمّة الذي لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبداً لبطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتحلّى بمكارم الشريعة الغرّاء،وكبير

الهمة هو من يتحرّى الفضائل، لتكون له خلقاً يتخلق به، لا لجاه ولا لثروة ولا للذّة عابرة، ولا لإستعلاء على الناس، بل الواجب على كبير الهمّة أن يتحرّى مصالح العباد، فيكون في خدمتهم شاكراً بذلك نعمة الله عليه متوخيا به رضاه سبحانه وتعالى، غير مكترث بقلّة مصاحبيه، فإنه إذا عظم المطلوب احتقر المبذول، وقل المساعد وطرق العلاء قليلة الإيناس.

وقال الشاعر يصف صاحبه بعلو الهمة حينما رأى صاحبه مصلوباً:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً ... كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد ... علاها في السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العدات
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت لمعشر سعداً فلما ... مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك في فؤادي ... يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدرت على قيام ... بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ... ونحت بها خلاف النائحات
ولكني أصبّر عنك نفسي ... مخافة أن أعدّ من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى ... لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى ... برحمات غواد رائحات

ابن مسعود وعلو الهمّة:

ومما جاء في علو الهمّة: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: والذي لا إله غيره،لقد قرأت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغني الإبل إليه لأتيته.

ويحكى أن أبا صالح أيوب بن سلمان، عكف على كتاب العروض للخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي العماني، حتى حفظه، فسأله سائل عن عكوفه وإقباله على علم العروض بعد أن بلغ من الكبر عتيّاً، فقال أبو صالح أيوب بن سليمان حضرت قوماً يتكلّمون فيه، فأخذني ذلك في نفسي أن لا أشارك القوم فيما يتكلّمون فيه من أبواب العلم، قال الشاعرفي المعنى:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته ليَ سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظَّما
أنهنها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذا فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولوعظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

الحاكم النيسابوري وعلّو الهمّة:

وقال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في كتابه: معرفة علوم الحديث، وهو يذكر فضل أصحاب الحديث وطلّابه: هم قوم سلكوا محجّة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله ﷺ.

هم قوم آثروا قطع المفاوز والقفار،على التنعم في الدِّمن والأوكار، واَستلذوا البؤس في الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار.

لذلك جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاهم،وحصرها فرشهم، نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة وسمرهم المعرضة (أي مقارنة ما كتبوه بما سمعوه) وأراحوا النفوس بالمذاكرة،واتّخذوا خلوقهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاءهم الضياء، وتوسّدهم الحصى.

فصارت الشدائد مع وجود الأسانيد عندهم رخاء، واعتبروا الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤساً فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلُّم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل البدع والإلحاد أعداؤهم.

الذهبي يصف ابن جرير الطبري:

وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة الإمام محمد بن جرير الطبري، قال أبو محمد الفرغاني تلميذ ابن جرير: كان محمد بن جرير الطبري لا تأخذه في الله لومة لائم،مع عظيم ما يؤذى، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه وزهده، ورفضه الدنيا وقناعته بما يأتيه من أبيه من طبرستان،قال:ورحل محمد بن جرير الطبري، لما ترعرع وسمح له أبوه بالسفر لطلب العلم، وكان أبوه طول حياته، يوجه إليه بالشيء بعد الشيء، إلى أماكن وجوده إلى البلدان، فسمعته يقول :لقد أبطأت مني نفقة والدي واضطررت إلى أن بعت شيئا من ثيابي، ولم يعلم أحد بذلك، وقال الشاعر:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي … وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي … ورفقي في مكالمتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي … لكنت إلى الغنى سهل الطريق

ومما جاء في وصف عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قول الشاعر:

صَمَتّ إذا ما زين الصمت أهله … وفتاق أبكار الكرام المختم
وعى ما حوى القرآن من كل حكمة … وسيطت له الآداب باللحم والدم

إنها مواقف جديرة بالاقتداء في علو الهمة، فالشدائد تصقل المواهب، فتظهر بارزة للعيان.

سعد بن أبي وقاص يصف أخاه بعلو الهمة:

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ، يوم بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟. قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ، فيستصغرني فيردّني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله أن يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله ﷺ فردّه، فبكى فأجازه، فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل في نفس غزوة بدر الكبرى، وهو ابن ست عشرة سنة.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩].

غرس علو الهمّة في قلوب الأولاد:

إن تربية الأولاد على علو الهمّة واجب من واجبات المدرسة، كما هو واجب الأسرة، إذ على المعلم أن يكون قدوة في غرس هذه الصفة الخلقية في قلوب تلاميذه بتطبيقها عملياً، وأن يعمل بمقتضاها لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والله حذر من أن نقول ما لا نفعل بمقتضى ما نقول حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٢-٣].

فغرس الهمّة العالية في النفوس ليس سهلاً، وإن دور الأسرة وبخاصة الوالدين أو من يقوم مقامهما أهمّ عناصر البيئة تأثيراً في إظهار النبوغ وزراعة الهمّة العالية في قلوب الأطفال، وهذا ما يفسّر لنا سرّ اتصال سلسلة من النابغين من أبناء أسر معينة، لأن الأطفال مادة خام تشكلها كما تريد، فإن وجد الأطفال من يأخذ بأيديهم إلى أحسن السبل حمدوا النتيجة، وإن لم يجدوا من يأخذ بأيديهم انتهوا إلى ما لا تحمد عقباه.

وقد كان الخلفاء والأمراء في طليعة المشجعين لطلبة العلم، وتربيتهم على علوالهمّة، وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يشجع عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب، ويدخله عليه مع من شهد غزوة بدر الكبرى من المهاجرين والأنصار،يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدخلني مع أشياخ بدر وكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال:

ما تقولون في قول الله سبحانه وتعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي عمر: أكذلك تقول يا ابن عباس؟.

فقلت: لا: قال فما تقول؟. قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه له، فقال: إذا جاء نصرالله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

أبو محجن الثقفي وعلوّ الهمّة:

ويقال إن أبا محجن الثقفي كان مولعاً بشرب الخمر، وحبسه القائد سعد بن أبي وقاص لهذا السبب، وكان أبومحجن ضمن جيش سعد بن أبي وقاص، فلما كان يوم القادسية بين المسلمين والعجم، وعلم أبو محجن ما يلاقي المسلمون من الفرس، وهو مكبَّل بالقيود، شكا أمره إلى أم ولد سعد بن أبي وقاص، كيف أن الجميع يجاهدون وأنا مسجون لا أستطيع الإشتراك في الجهاد بسبب القيود والسجن وأنشد قائلاً:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت مغاليق من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا أهل كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
هلم سلاحي لا أبا لك إنني أرى الحرب لاتزداد إلا تماديا

فقالت له أم ولد سعد: أتجعل لي عهداً إن أطلقتك أن ترجع حتى أعيدك في الوثاق؟. قال: نعم. فأطلقته وركب فرس سعد لأن سعداً كان مريضاً وحمل

أبو محجن على الفرس، وسعد يراقب المعركة، فلما رأى سعد فرسه وعليه رجل متلثم قال:لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن وأنه فرسي، وأبو محجن يخترق صفوف الفرس حتى انهزموا، وعاد أبو محجن إلى وثاقه وسجنه،وأعادت أم ولد سعد أبا محجن إلى وثاقه، وأتت سعداً فأخبرته، فأرسل إلى أبي محجن فأطلقه، وقال سعد لا أحبسه أبداً، فقال أبو محجن: أنا والله لا أشرب الخمر بعد اليوم أبداً وأنشد قائلاً:

ألم ترني ودعت ما كنت أشرب ... من الخمر إذ رأسي لك الخير أشيب
وكنت أروي هامتي من عقارها ... إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضرب
فلما دروا عني الحدود تركتها ... أللحد هذا منك أم أنت تلعب
وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة ... كأني مجنون وجلدي أحرب
سأتركها لله ثم أذمّها ... وأهجرها في بيتها حيث تشرب

لقد صدق أبو محجن الثقفي في عهده ووعده، فتركها وهذا يدلّ على علّو الهمّة، وطلب المنزلة العالية، وقد أخلص في الجهاد حين طلب من أم ولد سعد أن تطلقه، وتعيره فرس سعد بن أبي وقاص، فصدقه في الأولى، ففتح الله له باب التوبة في الثانية فتاب الله عليه حين تاب وقال:

أتوب إلى الله الرحيم فإنه ... غفور لذنب المرء ما لم يعاود
ولست إلى الصهباء ماعشت عائداً ... ولا تابعاً قول السفيه المعاند
وكيف وقد أعطيت ربي مواثقاً ... أعود لها والله ذو العرش شاهدي
سأتركها مذمومة لا أذوقها ... وإن رغمت فيها أنوف حواسدي